أن أهمية كل علم ترتبط بأهمية موضوعه، فأهمية التفسير نابعة من القرآن الكريم الذي هو أشرف الموضوعات، وأقدسها لأنه كتاب الله الخالد الذي " أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" وهو الضياء الذي ينير للإنسانية طريق الحياة الفاضلة، ويرسم لها المنهج السوي في حل ما يعترضها من مشكلات بفضل ما جاء فيه من مبادئ حكيمة وقوانين عادلة ونظم سديدة ، ومثل عليا تبني العقيدة السليمة في العقول وتغرس الاخلاق الحميدة في النفوس، إنه رسالة الحياة المثالية كا شمل ما تكون الحياة، إذ فيه المجالات الفسيحة للنظم التربوية والاجتماعية والسياسية ونظم المعاملات وقواعد العلاقات في شتى صورها على مستوى الفرد، والاسرة والدولة، وبيان علاقتها بغيرها من الدول وصدق الله العظيم حيث يقول :﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزمر: ٢٨ .

ولقد قال رسول الله ﷺ في وصفه كما روى عن علي ﷺ : ((عليكم بكتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخير ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفضل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى في غيره اضله الله ، هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ومن خاصم به أفلح، ومن دعي إليه هدى إلى صراط مستقيم)).

فالعمل بهذا القرآن لا يكون ألا بعد فهم ألفاظه، وشرح آياته ، والوقوف على ما حواه من عقائد وأحكام وعظات، والالمام بمبادئه وأهدافه وهذه الأمور لا يهتدي إليها، ولا يتحقق العلم بها إلا بعلم التفسير ، ولهذا كانت ألفاظ القرآن وآياته وحكمه موضع اهتمام المسلمين منذ الصدر الأول، فالصحابة رضوان الله عليهم مع علو كعبهم في الفصاحة والبلاغة كانوا يسألون الرسول عما يصعب فهمه من آياته وأحكامه، فهذا عدي بن حاتم لما أشكل عليه فهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر من قوله تعالى "﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ

﴿ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ١٨٧﴾ البقرة: ١٨٧، رجع إلى الرسول ﷺ فأهمه أن المراد بهما بياض النهار وسواد الليل. وقد ازدادت الحاجة إلى التفسير عصراً بعد عصر نظراً لضعف المملكة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم وشيوع اللحن الذي أفسد الفصاحة والبلاغة بين صفوف المثقفين ، فالتفسير له أهمية عظيمة ، ومكانة كريمة بين سائر العلوم لأنه المفتاح لعلوم القرآن وكنوزه الرائعة وأسراره المعجزة . من أجل ذلك نجد معظم المفسرين يتحدثون عن أهميته ، فهذا الراغب الاصفهاني يتحدث في عبارة له عن أهمية التفسير فيقول : ((أن أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله)) . وذلك لأن الصناعة إنما تشرف بشرف موضوعاتها ، وهل هناك موضوع أشرف من موضوع كتاب الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة ، ومفتاح كل نهضة وتقدم وازدهار ، ويقول السيوطي بعد أن يشير إلى موضوع التفسير والغرض منه وشدة الحاجة إليه : ((فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث أما من جهة الموضوع فلان موضوعه كلام الله تعالى الذي ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض ، فلان الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقة التي لا تفنى. وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني ، أو دنيوي ، عاجل أو آجل ، مفتقر إلى العلوم الشرعية ، والمعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

ويقول الطبرسي : ((علم التفسير هو أجل العلوم قدراً لأنه الموصل إلى فهم مراد الله من كتابه ، ومعرفة أحكام الله في وحيه ، وما فرضه على عباده ، وهذه الغاية كما لا يخفى هي أشرف الغايات ، وأحسن الطرق لنيل السعادات)).

فلو دققنا النظر في هذه الأقوال لا تضحت لنا أهمية التفسير ومكانته الجليلة، ومدى حاجتنا إليه ، لذلك بذل العلماء جهودهم في خدمة كتاب الله منذ الصدر الأول إلى عصرنا هذا أداء للأمانة، وتبليغاً للرسالة، وحرصوا كل الحرص على تفهمه، وطلب تفسيره، فهذا التابعي

الجليل أبو عبد الرحمن السلمي يصف لنا ذلك فيقول : ((حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود ﷺ وغيرهما إنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعلم ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً)) لاشتمالها على العقائد الحقة، والاخلاق السامية والاحكام الشرعية العادلة التي تقود المسلم إلى السعادة في الدارين من اجل ذلك حثنا الله ﷻ في آيات كثيرة على التوجه إلى هذا الكنز النفيس اللامتناهي لفقه آياته وتدبر حكمته ، والاعتبار بأسراره وعظاته، فخاطب نبينا محمداً قائلاً : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩، ففي هذه الآية وما اشبهها من آيات يأمر سبحانه عباده بفهم كتابه فيحثهم على تدبره، والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بمواعظه، وقد فهم ذلك المفسرون قاطبة فعدوا الكشف عن معاني كلام الله واجباً ، فهذا ابن كثير يعبر عن ذلك في مقدمة تفسيره فيقول: ((فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه ، وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٧ ، وقال ايضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧٧ ، فذم الله تعالى في هذه الآيات أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم واقبالهم على الدنيا وجعلها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كلام الله ، فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهيمه.

- وقد ذهب الزمخشري إلى أبعد من هذا فجعل الخوض في تفسير القرآن فرض عين. ولعل ذهاب هذين العالمين إلى هذا المذهب يعتمد على ما في القرآن والسنة من نصوص تدل على الدعوة إلى العناية بتفسير القرآن وكشف معانيه .

- ومما جاء في السنة ما رواه الشيخان عن عثمان بن عفاف ﷺ عن النبيﷺ قال: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) ، كما أن الاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة النوافل ، ويؤيد ذلك

ما رواه ابن ماجة في سننه من حديث ابي ذر عن رسول الله ﷺ إنه قال : ((لان تغدو وتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مئة ركعة)).

- ومن ذلك ايضاً قوله ﷺ من حديث ابن عباس ﷺ ((القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه)) ، فالناظر في هذه النصوص يدرك أن تفسير القرآن وفهمه من أجل الاعمال وأفضل العبادات، وأن تعلمه وتعليمه لا يصعب على طالبه، وأنه ذو وجوه فإذا تدبره فقد يفهم منه مقاصد مطوية ووجوهاً من المعاني خفية فينبغي أن يحمله على أحسن معانيه ، وأوضح مقاصده ، وأصح مراميه مما يدل على أن التفسير مطلوب وأنه فرض ولكن على وجه الكفاية لا العين لأن نهضة المسلمين ورقيهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة متوقفة على العمل بكتاب الله ، والعمل بكتاب الله لا يتأتى إلا إذا فهمت نصوصه حق الفهم ، وذلك عن طريق علم التفسير ، وأن السر في نجاح سلفنا الصالح مع قلة العدد وضيق ذات اليد هو توفرهم على دراسة كتاب الله والعمل به على الرغم من ملكاتهم ومواهبهم الفطرية إذن فنحن الآن في أشد الحاجة إلى تفسير كتاب الله والعمل به حتى لا تضعف ملكة البيان ، ولا تضيع خصائص اللغة العربية . وهذا ما أجمع العلماء وما أجمل قول الرسول ﷺ في التحريض على قراءة القرآن وتفهم معانيه : ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده)). وروى عبد الله بن مسعود إنه ﷺ قال : ((إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فأقرأوه فأن الله ﷻ يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول لكم الم حرف ولكن الف ولام وميم ثلاثون حسنة)).

- ومع هذا كله فلا يحل لكل مسلم أن يمارس التفسير إلا إذا كان أهلا له وعالماً به ومتمكناً من أسبابه، ومستكملاً كل مقوماته وشروطه حتى يسلم كلام الله من جهل الجاهلين وضلال المضلين ، لأن الجاهل بذلك يهرف فيه بما لا يعرف فيظل الناس عن سواء السبيل.

- من آجل ذلك ارى ان طلبة الدراسات الإسلامية أولى الناس بحفظ القرآن والقيام بتفسيره ، ونشر مبادئه واحكامه، وأنهم أجدر الناس بالتزامه سلوكاً وعملاً في كل شأن من شؤون الحياة.
- لأنهم هم الذين يقدرون على الرد على كل مبتدع في تفسير الآيات أو مؤول لها على غير معناها المراد، كالمشبهة والمجسمة حيث اتبع الاولون طريقة منحرفة في معالجة النص القرآني ومحاولة تفسيره، فلم يكلفوا انفسهم كما يقتضي الأمر عادة بالرجوع إلى الاصول الشرعية الاخرى والاخرى والقواعد الاصولية التي تجلي حقيقة النص وتبرز معناه الصحيح ، أو تدرأ عن تفسيره كل زيغ وانحراف.

فالمؤولة فسروا بعض الآيات على غير وجهها الصحيح لانحرافهم في المنهج واتباعهم طريقة تعتمد على اقتطاع آية أو جزء من آية عن سياقها الذي يقتضيه تفسيرها، ومن ثم تأويلها بما يتفق ، لذلك فأن التفسير الذي يقوم على هذا المنهج يعد ضلالا وزيفاً .